تجربة معلم

تجربتي في تدريس الكتابة الإبداعية للصف السابع

الكتابة كبحث خلف السور

عندما وقفت أمام طلاب الصف السابع لأول مرة في حياتي لأدرّسهم التعبير، أذكر أنني قلّدت أستاذي الذي علمني في الصف السابع اللغة العربية. قلت لهم تماماً كما قال أستاذي: اكتبوا عن الفرق بين الشتاء والصيف. ولا تصدروا ضجيجاً. كان الأستاذ يمشي بيننا ويسرح في ذهنه إلى البعيد، لم يكن يفكر بالتأكيد في طريقة جديدة لتدريسنا الكتابة. كان يعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية ونفسية وكذلك كنت أنا. أتمشى عادة بين الطلاب، أنظر إلى الجبل المقابل للنافذة على يسار الطلاب وأفكر: يا الهي متى ستنتهي هذه الحصة الطويلة المملّة؟ متى سينتهي هذا اليوم الدراسي الطويل. فجأة انقض صوت طالب على السكون البليد للحصة:

أستاذ: ممكن سؤال؟

تفضل يا رام

لدينا أربعة فصول، الخريف، الشتاء، الربيع، الصيف. لماذا لا يوجد فصل خامس؟

فاجأني رام بسؤاله تلك المفاجأة التي توقظ مريضاً من غيبوبته. كان الأستاذ القديم الذي علّمني يتهيأ لإجابة رام إجابة محبطة وقاسية، لو حدثت بالفعل كانت ستدمر أو تشل طاقة الكائن الحساس والموشك على الامتداد والتعمق في الأشياء.

فجأة شعرت بصراع طاحن في داخلي بين الأستاذ المترهل القديم المحبط وبين الكاتب الحساس المتفتح والرقيق المتعاطف مع الطفولة المعذبة، والذي يطمح دائماً إلى تطوير قدراته التخيلية وتطهير ذهنه من رواسب التفكير السطحي والعشائري وذي البعد الواحد.

جلست على الكرسي حائراً وممزقاً. وجدت نفسي انهض، وسمعتني أقول: يا له من سؤال رائع يا رام. سؤال غريب ومثير للتفكير والتخيل. طلبت من الطلاب أن يتركوا ما بأيديهم ويتوقفوا عن الكتابة. تحفز الطلاب لهيأتي الجديدة، وأطل من عيونهم فضول كبير لمعرفة سر الحيوية المفاجئة لأستاذهم الذي عوّدهم على إصدار الأوامر والمشي بينهم والتأفف من ضجيجهم. كتبت على السبورة كلمة «كتابة إبداعية» وقلت لهم: لا «تعبير» بعد اليوم، هناك «كتابة إبداعية»، فسمعت العبارة تتردد همساً بينهم فيما هم يتبادلون النظر الحائر.

- ماذا تعني «كتابة إبداعية» يا أستاذ؟

الكتابة الإبداعية هي الكتابة التي تقع خلف السور.

- ما هو السور يا أستاذ؟

السور هو الحاجز الذي يفصل المألوف عن الغرائبي، والواقعي عن الخيالي، أما ما قبل السور فهو الواقع بموجوداته كافة: الشارع، البيت، المصنع، المستشفى ...الخ وخلف السور هو كل ما نخافه أو لا نعرفه أو نخجل منه، هو المجهول.

- إذن سنهرب من الواقع لنطير خلف السور يا أستاذ؟

نعم هو هروب بالمعنى الإيجابي والسلبي، نحن نهرب من الواقع لنواجهه، نستخدمه، ونختبره ثم نحوله إلى واقع فني، لا هروبا نهائياً من الواقع، هو يلاحقنا كظلنا، لكننا نضحك عليه، نراوغه ونعيد خلقه من جديد ليصبح واقعاً جديداً بشروط أخرى وقوانين مختلفة.

لذلك فالكتابة الأدبية مزيج من البقاء داخل السور وخارجه.

- هيا نهرب يا أستاذ، علّمنا الهروب، علّمنا الطيران.

الكتابة خلف السور هي الكذب بعينه، نعم، ولكنه الكذب الضروري الصادق الذي يؤدي إلى اكتشاف قدراتنا وسبر طاقاتنا وإضاءة أبعاد جديدة من الحياة.

- أستاذ، رام سألك لماذا لا يوجد فصل خامس، أنا أسألك ألا يوجد وقت آخر بين الليل والنهار؟

نعم يوجد هناك مساحة صغيرة، عجيبة، كأنها السحر بين الظلمة والضوء، ألم تشاهدها، تقع فجراً عند الرابعة تقريباً. يقولون أن هذا اللون يشبه لون الضوء في الجنة.

- ولماذا لا يوجد نهاية للعالم، نهاية أرضية؟ أتخيل أحياناً – يا أستاذ – أنني أسافر بعيداً بعيداً حتى آخر العالم، وهناك أقف على حافة الدنيا، أحب أن أعرف أو أتخيل ماذا يوجد وراء العالم الذي نعيش فيه.

ذهلت أيما ذهول من أسئلة طلابي. لم أستطع أن أكمل لسببين. أولهما، أن الحصة انتهت، يا إلهي انتهت الحصة بسرعة، لماذا؟ ولأن دهشتي شلّتني، قلت لهم سنكمل لاحقاً.

خرجت من الصف مبهوراً وشاعراً بخجل شديد. وجثة بداخلي تتحلل وتتساقط إلى الخارج. ضوء غريب غمرني، لم أسمع حديث الزملاء معي. طلبت إذنا من مديري وخرجت إلى المدينة، جلست في مقهى بعيداً عن الضوضاء وعن العالم ورحت أجلد نفسي، ست سنوات من الأوامر أمضيتها أمام الطلاب أعبس في وجوههم وأقمع أسئلتهم وأسخر من جنونهم وأغضب من ضحكاتهم وتعليقاتهم. ست سنوات من الجفاف والمشي المتواصل بين الطلاب، لا أفعل شيئاً سوى انتظار نهاية الحصة وانتظار نهاية العام، وانتظار نهاية العالم الذي فيه مدارس ودفاتر تحضير ومدراء وكتب. اليوم صحوت، اليوم صرت حقيقياً وثرياً وانسجمت مع رؤياي للعالم والإنسان. ما الذي صحّاني؟ ألكوني كاتباً؟ أم لكوني إنساناً عنده ضمير، اليوم اكتشفت بفضل الطلاب الرائعين أنه بالإمكان استغلال المدرسة المثقلة بالقيود والبلادة والروتين والعادي وتحويلها إلى واقع آخر، تماماً كما استغل أنا الواقع لأعيد خلقه وأحوّله إلى عالم فني آخر.

في صباح اليوم التالي، عدت إلى المدرسة إنساناً آخر بالفعل، كانت هذه الحادثة مفصلاً حقيقياً حوّلني لاتجاه آخر، مات الأستاذ القديم داخلي وانتصر الكاتب الذي يحلم بالطيران هناك خلف السور، واكتشاف الكنوز والتعمق في المجهول وغير المألوف، وملامسة الغريب واختبار علاقات جديدة بين الأشياء. استغربت من حالي كثيراً. ما دمت كاتباً أعيش أغلب وقتي خلف السور كتابة وحياة، فلماذا لم أحاول تدريب طلابي على القفز معي والطيران؟

هل السبب في ذلك هو نفسيتي الخربة؟ أم وضعي الاقتصادي البائس؟ أم هو الإحباط العام للوطن وللإنسانية؟ لا أدري؟ ولا أريد أن أدري. المهم أنني تحولت إلى إنسان آخر. وقفت أمام الطلاب بهيئة جديدة وروح مختلفة، كتبت على السبورة «كتابة إبداعية». طلبت منهم أن يستعدوا للكذب – الكتابة، القفز خلف السور، سألتهم: هل لديكم تعريفات أخرى للكتابة الإبداعية؟ نظروا في وجوه بعضهم البعض، وابتسموا، حاولوا أرجوكم.

قال خالد: قد تكون الضحك على الواقع

قال باسم: قد تكون الهرب من الواقع

قال حامد: قد تكون الطيران خلف الأشياء الموجودة

قال أسعد: قد تكون التحول إلى شيء آخر

قال سليم: قد تكون اكتشاف الجديد

قال محمد: قد تكون الإنسان الآخر.

رائع، رائع، هتفت بصوت عالٍ، أحسست برغبة في إطلاق صوت يشبه الاعتذار، يشبه الندم، يشبه الخجل، يشبه البكاء...لم أفعل، تمالكت نفسي وجلست على الكرسي، أتنفس بسرعة.

نهضت بعد خمس دقائق عن الكرسي. لم يكن لديَّ رؤية معينة لتدريس الكتابة الإبداعية. لم يكن لدي دفتر تحضير، لا أؤمن به. أشعر به شيئاً ثقيلاً يكتم أنفاسي ويحدد إمكانياتي ويحد من طيراني، ويغلق أفقي، «لا أحب أن يحددني أو يسورني أحد». جاءت الأشياء هكذا على عواهنها. رأيت نفسي أسألهم. أتعرفون كائناً أسمه البحر.

نعم نعرفه ونحبه ونشتاق إليه ونخافه.

إذن اكتبوا عنه انطباعاً سريعاً من كلمة واحدة «دون أل التعريف، وذلك لعدم التحديد والقولبة ولتوسيع أفق الصفة إلى أبعد حد، لتصبح كلمة كونية».

قال أمجد البحر عمق

قال أيمن البحر خوف

قال سليم البحر زرقة

قال زياد البحر ضياع

قال راضي البحر سفر

قال عدنان البحر موت

قال رامز البحر ليل

قال فراس البحر شهيق

قال مالك البحر جنون

سجلت كلمات الطلاب على السبورة، رأيتني أطلب منهم أن يوظفوا كلماتهم في جمل مفيدة.

كتبوا جملاً جيدة.

في البحر أضيع واختفي

في البحر ليل عميق

في البحر زرقة خائنة

البحر سفر طويل بلا عودة

كتبت الجمل على السبورة، طلبت منهم تسجيلها في الدفاتر.

طلبت منهم تحضير مخيلاتهم والتعاون لكتابة نص مشترك عن البحر، كل طالب يكتب جملة، أنا أيضاً سأكتب معهم.

كتبت أنا الجملة الأولى «أمشي وحدي على شاطئ البحر ليلاً، لا بشر حولي» كتب الطالب أحمد الجملة الثانية «كنت حزيناً جداً وخائفاً» كتب الثالث «وكان البحر بجانبي شخصاً غريباً مخيفاً يتنفس بقوة» وكتب الرابع فجأة «رأيت ضوءاً قوياً يأتي من بعيد».

كتب الخامس «رأيت نفسي اتجه تجاه الضوء»، كتب السادس «كان الضوء يتجه نحوي هو الآخر»، السابع «كنت خائفاً جداً لكني مصمم على التقدم»، الثامن «الضوء كان خائفا أيضاً هكذا أحسست»، التاسع «وقفت قبالة الضوء حائراً، إنه ضوء غريب غير متشكل على أية هيئة، أنه ليس إنساناً ولا حيواناً أنه ضوء فقط».

العاشر «وهو أنا، مددت يدي فاختفت في الضوء، حاولت أن أرجعها فلم تعد، أصبحت بلا يد».

الحادي عشر «مددت رأسي، اختفى وذاب، أصبحت بلا رأس»، الثاني عشر «مددت قدميَّ اختفيا»، الثالث عشر «رميت كامل جسدي نحو الضوء العجيب الساطع، فاختفيت عن نفسي ولم أعرف حتى الآن أين أنا».

طلبت من الطلاب كتابة النص المشترك على دفاترهم، ثم طلبت منهم كتابة نصوصهم الشخصية بعيداً عن أجواء النص المشترك.

شرعوا يكتبون، كنت أكتب معهم نصي، كنت أقفز معهم خلف السور، كنت أعتذر منهم ومن الوطن ومن الكتابة ومن نفسي وكنت أعانق الحياة.

زياد خداش

كاتب ومدرس في مدرسة أمين الحسيني – البيرة